بعض الأسس المعرفيّة لنظرية تشومسكي

آراء كارل فيلهالم فون هامبولت المؤسسة

عبدالرزاق دوراري

يستلهم تشومسكي آراء فون هامبولت (1835-1767) بحثا في أول أمره عن نوع من الشرعية التأسيسية لنظريته الفتية آنذاك، ونحاول هاهنا استشفاف ـ من خلال عرض مختصر لآراد هامبولت الهامة ـ الجذور النظرية للنحو التفريعي التحويلي وإلى أي مدى يمكن أن نعتبر هذه الأخيرة امتدادا لآرائه الفلسفية واللغوية في آن واحد.

فون هامبولت فيلسوف ألماني ومفكر في مجال اللسانيات ورجل دولة 1، كان له دور في تأسيس جامعة برلين. درس هامبولت إلى جانب اللغات الكلاسيكية المعروفة، كثيرا من اللغات من بينها اللغات الأمريكية ـ الهندية والسنسكريتية والصينية والمجرية والتاتارية واللغات السامية واليابانية... وغيرها من لغات العالم 2، وقد مكنه هذا الإطلاع الكبير على لغات العالم من أن يكوّن آراء لغوية ذات أهمية حول اللغة كظاهرة إنسانية عامة ربطها ربطا وثيقا بفكرة "تصور العالم" (Weltanschuung) و"روح الأمة" (Volksgeist) التي سنراها فيما يلي

يندرج هامبولت ضمن فلسفة كانط المثالية وحاول أن يطورها بجعلها تقوم على أساس التاريخ الاجتماعي ولهذا فإنه لم يتجاوز قط التناقضات التي وقع فيها كانط نفسه بين نزعته المثالية وميوله المادية.

انشغل هامبولت بقضايا عصره فبحث في طبيعة وأصل وتطور الفكر الإنساني وأصل الديانات والملحمات القديمة باعتبارها شواهد على الفكر وعلى الديانات البدائية[3].

في مجال فلسفة اللغة، اقترح هامبولت مذهب اللسانيات التاريخية [4] وعلى الرغم من أنه لم يهتم بقضايا اللغة إلا في آواخر حياته، أي بعد عدوله عن السياسة، غير أنه قدم إسهامات معتبرة في هذا الميدان إذ حاول على سبيل المثال توليد مفهوم "الصورة النحوية" (Forme Grammaticale) وفصله عن مفهوم "الصورة المنطقية" (Forme logique)[5] ومع ذلك فإن الشيء الذي حزّ كثيرا في قلب هامبولت هو رغبته القوية في كتابة ما يمكن أن يسمّى بـ "علم الإنسان المقارن"(Anthropologie Comparée) عوضا من النحو المقارن، ويبدو أن دراسته للغات من فصائل مختلفة لم تكن قط إلا لهذا الغرض[6]. حاول هامبولت أن يصوغ مصفوفة (Matrice) ينظم وفقها ضمائر أي لسان بشري[7] - وقد قام بهذه العملية فيما بعد إميل بنفينست - ونشر مقالات تبرز إلى أي مدى كان هامبولت ذا فكر ثاقب.

وما مفهوم "الشكل الداخلي" (Innere sprachform) الذي يقوم عليه التكوين الذاتي للسان البشري إلا نتيجة منطقية لهذه الجهود لعل أهم النصوص التي كتبها فون هامبولت في مجال الدراسات اللغوية هو مقاله بعنوان "السمات الأساسية التي تحدد الرسم التوليدي للسان بصورته العامة" (Traits fondamentaux définissant dans toute sa géneralité le schéma génerateur de la langue) حيث يقول من بين ما يقول فيه أن دور النحو ينحصر في تحليل وإبراز (Scansion) عناصر الخطاب وفي

معالجتها لاستبيان كيفية ترابطها، وتظهر من ثم أهمية استخراج الرسم الباني للغات واستنباط تمفصل (Articulation) مختلف أجزاء الخطاب، ونستطيع أن نكتفي بهذا العنوان الهام جدا لنكوّن فكرة عن اتجاه البحث اللغوي عند هامبولت، إذ يظهر واضحا بأنه لم يكن منشغلا بلغة معينة، لغته مثلا، وإنما كان اهتمامه منصبّاً على قضايا اللغة البشرية بصورة عامة، أي باللغة كقدرة إنسانية عامة، ومفهوم "الشكل الداخلي" هو أساس "**كليات اللغة**" (Universaux du langage) التي نلقاها بقوة كبيرة في أعمال نعوم إبراهيم تشومسكي وأتباعه في نظرية النحو التفريعي التحويلي وبمصطلح لايختلف كثيرا وهو مصطلح "**البنية العميقة**" (Structure profonde) التي تشترك فيها اللغات البشرية مهما اختلفت ومهما كانت فصيلتها. فإن هذه الاختلافات الظاهرة مابين اللغات البشرية تعزى إلى "**بناها السطحية**" (Structure de Surface) نعرض فيما يلي بعض مصطلحات هامبولت الهامة في نظرنا عزلنا بعضها عن البعض الآخر لأغراض بيداغوحية رغم ترابطها الشديد.

1ـ اللغة تصور للعالم:

لما كان هامبولت لايهتم باللغة إلاّ بقدر ما تستطيع هذه الأخيرة أن تخبره عن المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة، فإنه ربط اللغة بما أسماه (Weltanschauung) "**تصور العالم**" الخاص بأمة ما، أي الكيفية التي تنظر بها هذه الأمة إلى العالم وتحلله أو بالأحرى، الطريقة التي انعكس بها العالم الحقيقي الموضوعي في أذهان الأمة. وإذا كانت اللغة مقرونة بتصور العالم هذا، فإن دراسها سيعثر لامحالة على الآثار التي إن تتبعها جيدا أدت به إلى اكتناه روح الأمة. هكذا تصبح دراسة أية لغة بمثابة جولة في أعماق الأذهان تسمح بمعرفة الكيفية التي تفكر وتتصرف وفقها هذه الأمة وكذا معرفة مدى تقدمها أو تأخرها إذ أن "تفوق بنية لسان ما يدل على تفوق ذهنيات معينة وبالتالي تفوق رق

معين" [8] وليست هذه الفكرة من ابتكار هامبولت نفسه وإنما كانت موجودة من قبله عند الفيلسوف الألماني هيردر (Herder 1803-1774)، حيث يقول مثلا: «كلنا يفكر في إطار لسان معين: التفكير يعادل الكلام. كل أمة تتكلم إذن مثلما تفكر، وتفكر مثلما تتكلم[9] ويضيف أن الأمة تجسد تجاربها في لسانها بما في ذلك الحقائق والأخطاء التي ينقلها اللسان إلى الأجيال الموالية مشكلا بذلك تصورها» [10].

إن هذه الأفكار التوحيدية المقدسة للأمة الواحدة التي نستشفها من مفهوم "روح الأمة" كانت قضية متداولة بين المفكرين الألمان يعزي آدم صاف جذورها إلى الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وإلى الفيلسوف هيكل (Hegel 1831-1770) بصورة خاصة، فكأن هامبولت مزيج من كانط وهردر وهيكل، ينبغي ألا نفهم مما سبق أن آراء هامبولت مجرد ترداد لما سبق أن قاله الفلاسفة الذين سبقوه بما في ذلك فكرة أن اللغة تشكل تصورنا للعالم، إذ أكدها وتعمق فيها أكثر من هيردر إلى درجة أنه كاد يحصر دور اللسانيات في دراسة تصور العالم هذا كموضوع أساسي لها بلا منازع فيقول: «... يتمثل المعنى الحقيقي للدراسات اللسانية في تبيان مساهمة اللغة في خلق التصورات"[11]. ومن ثم ينسب هامبولت للغة قدرة تحويل الواقع إذ لايستطيع العقل أن يدرك وحدة العالم إلا من خلال اللغة وذلك لأن سعة اللغة تساوي سعة العالم. فيربط هذه الفكرة بمفهوم اللغة باعتبارها "طاقة" (Energia) وليس "عملا" (Ergon)، ولهذا تجب دراستها في حركيتها كما يجب تتبع نسبها وتاريخ تطورها. يرى آدم صاف (نفسه ص 24-26) بأن طاقوية اللغة وحركيتها مرتبطتان بمفهوم الشكل الداخلي للغة الذي سبق أن قدمناه. وإن هذا الأخير يعد القوة الخلاقة والمحولة للعالم مثلما تكون الإبداعية عند تشومسكي (Créativité)، متعلقة بالبنية العميقة للغة ومؤسسة لقدرة هذه الأخيرة على تغطية العالم وحاجيات الإنسان التعبيرية عليه.

كان لهذه الأفكار مكملون وأتباع مثل يوست تريي (Jost trier) وفايسكيربير (Weisgerber) وصل تأثيرها حتى بولندا فألهمت بودوان دي كورتني (Baudoin de Courtenay) الذي كتب إثر ذلك كتابا بعنوان نترجمه بالتقريب كالتالي: "تأثير اللغة على رؤيه العالم والمزاج" (Einfluss der spracher auf weltanshauung und stimmung) وذدلك سنة 1929، كما بلغ هذا التأثير أصحاب نظرية " الحقل الدلالي" (champ sémantique)

2 – كليات اللغة:

لئن كان مفهوم كليات اللغة متضمنا فيما سبق من حديث إلاّ أننا رأينا أن نخصص له فقرة نظرا لأهميته في الأسس المعرفية لنظرية النحو التفريعي التحويلي ومن ثمة في كتابات التفريعيين. ويجدُر الذكر هاهنا بأن هذا المفهوم كان قد أثار ضجة واستنفار جميع البنويين الذين صرحوا بأن النحو التفريعي التحويلي قد نقض الطابع العلمي آنذاك لأنه، كما يقولون قد نقض قاعدة ذهبية عندهم هي **خصوصية وأحادية** (Caractère particuler et unique) كل نظام لغوي بشري. هذه الخصوصية والأحادية تصور اللسان على أنه **نظام منفرد** لايمكنه إلا أن يختلف ويتباين مع جميع الأنظمة اللغوية للألسنة الأخرى. فكيف يمكن في هذه الحال أن تكون هناك بنى لغوية كلية تشترك فيها جميع الألسنة البشرية؟ ولعل أكثر الناس معارضة لمفهوم كليات اللغة هو أندري مارتيني (André Martinet) الذي يحصرها، إن وجدت في التقطيع المزدوج (Double Articulation) ليس إلا. كما ثار كلود حجاج (Claude Hagège)[12]، بعنف شديد ضد الأفكار الأساسية التي جاءت بها نظرية تشومسكي في الستينات.

تبرز أهمية هذا الكلام أيضا في تبيان العلاقة التي تربط مابين أفكار هامبولت وتشومسكي. في هذه النقطة يجدر ذكر بعض أقوال هامبولت نفسه لتوضيح العلاقة التي سبق ذكرها: «كما رأينا ذلك فيما يتعلق باللغة بصورة عامة، وبالأبنية الداخلية للألفاظ فإن النحو نفسه يستلزم أن يوجد في الإنسان رصيد مشترك، غير أنه في الواقع يظهر بأشكال مختلفة حسب القدرات الذهنية والميول الخاصة للأمم وحسب الأصل التاريخي للغاتها». ويتابع ليقول: «ومن ثمة فإنه لاجدوى من الإدعاء أنه يمكن استقراء النحو، سواء كان النحو المقصود شاملا (universel) أم نحو لسان خاص، بالاعتماد على سرد، مهما كان دقيقا، لجميع الصيغ المعجمية ودون الرجوع إلى هذا الجهاز العام والأبدي الذي هو ذات اللسان نفسه» 13، وماهذا الرصيد المشترك بين المتكلمين البشر إلاّ ما يسميه اليوم التفريعيون بالنحو التفريعي. المتكلم مهما تكون لغته الأم يستبطن (Intériorise) نحوا تفريعيا يسمح له بإحداث وفهم أقوال بعدد غير متناه. إن لغات الأمم المختلفة لا تتباين في هذا الشأن وإنما في الطريقة التي تستعمل وتكيف بها هذا النحو. النحو التفريعي بهذا المعنى يكون نحوا كليا وتكون هناك أنحاء خاصة (grammaires particulières)، مستمدة من هذا النحو الشامل، مكيفة لتتطابق وحاجيات اللغات الخاصة، وهنا يلتقي تشومسكي مع شوميان الروسي الذي وضع مفهومي "جينوتيب" (génotype) للتعبير عن النموذج الشامل الكلي للأنحاء الذي تستمد منه الأنحاء الخاصة أي "الفينوتيب" (Phénotype).

كان هامبولت يحبذ الاعتماد على وصف الألسنة (Sprachbau) وهكذا فقد صنف هذه الأخيرة حسب بناها (Typologie) وليس حسب فصيلتها (Famille) أي أصلها وانتسابها. وهذا ما يؤكد مرة ثانية رغبته في إبراز ما يجمع بين الألسنة في ذواتها باعتبارها وليدة العقل البشري ومتشابهة نتيجة

لذلك، وإن ابتعاده عن التصنيفات القائمة على القرابة والفصيلة راجع إلى أن هذا النوع من التصنيف يذهب في الإتجاه المعاكس لمفهوم الكلية ليركز على الإختلافات بدل من التشابهات.

ومما يدعم فكرة الكلية أكثر نذكر المفهوم القائل **بأن اللغة قدرة طبيعية وبيولوجية** خاصة بالإنسان دون غيره من الحيوانات. فيرى تشومسكي أن أقطع دليل على ذلك هو أن أبلد بني الإنسان يستطيع أن يكتسب لغة في حين أن أذكى الحيوانات الأخرى، مثل الشانبنزي والدلفين وغيرها من الحيوانات التي تخضع إلى تجارب دءوبة لتلقينها لغة ما مهما كانت بسيطة، تعجز عن ذلك عجزا ذريعا.

إن جذور هذا الرأي ترجع إلى هامبولت حيث يقول: «إن اللغة وظيفة تشكل سمة طبيعية للإنسانية وهي مرتبطة بمفهوم الإنسان ذاته... الإنسان يتكلم مثلما يرى ويتحرك ومثلما يقوم بكل الوظائف المطابقة لأعضائه الخاصة، مع اختلاف بارز هو أن اللغة تستوجب أن يحصل عنده تطور تدريجي»[14]. هكذا تبدو لنا اللغة وظيفة طبيعية شبيهة بالوظائف الأخرى التي يتمتع بها الإنسان مثل الحواس والأرجل والأيدي وكل الأعضاء الطبيعية التي يحظى بها. وإذا كانت الوظائف الأخرى التي ذكرناها مرتبطة بأعضاء معينة تتيح للإنسان فرصة التمتع بها فإن اللغة، باعتبارها وظيفة بيولوجية، هي كذلك ترتبط بعضو حاسم عند الإنسان هو المخ وما ينتجه من فكر.

3ـ اللغة والفكر

يربط تشومسكي، على غرار أستاذه الروحي، بين الفكر واللغة ربطا شديدا وماهذا إلاّ نتيجة منطقية لأفكاره المتعلقة بكليات اللغة ولاعتباره اللغة وظيفة طبيعية يقع مقرها في الدفاع. ولا أدل على اهتمام تشومسكي بهذا الوجه من أوجه الدراسة اللسانية من تخصيصه إياه كتابا كاملا اللغة والعقل

(Language and mind) وكتبا أخرى خاصة بقضايا المنطق واللغة (On the logical structure of linguistic Theory) أو كتابه المترجم إلى الفرنسية (La linguistique Cartésienne) ويقول هامبولت إن "وضوح الفكر يتوقف على اللغة" فيرى أن اللغة موهبة وضرب من الخصائص الفطرية لعقل الإنسان ومقدرة داخلية (eine innere kraft) [15] فكأن الإنسان واللغة ولدا معا. هكذا يبدو الفكر مطابقا للغة والعكس صحيح وكأن الفصل بينهما لايصلح إلا لضرورة الدراسة العلمية البينة. يصرح هامبولت في هذا الصدد: «تضم قوانين الفكر التحديدات الأساسية للنحو، فلا يمكن أن نبحث عنها إلا عن طريق الاشتقاقات المفهومية الصرفة.، فهي تشكل بالضرورة الجزء الفلسفي للغة كما عرف ذلك اليونانيون منذ الأزمنة الغابرة، أي ذلك الشعب الذي حضي بأكمل اللغات» [16]

فكيف إذن يمكن للفكر أن يستقيم دون اللغة ويمكن للغة أن تكون دون الفكر؟ يجب على الفكر أن يتقولب في اللغة التي توضحه وتنظمه. اللغة هي العضو الذي يشكل الفكر (die sprache ist das bildende organ des gesdanken)[17]. ويتابع جورج مونان (أنظر الهامش السابق) فيقول عن هامبولت إن رأيه هو "أن طبيعة اللغة قواها أن تصهر مادة العالم الحسي في قالب الأفكار" (ص191) كل هذه الآراء حول تلازم اللغة والفكر هي في الحقيقة سابقة لهامبولت إذ وردت عند هردر من قبل. حيث يقول: «ليس اللسان أداة فحسب بل إنه مخزن وشكل للفكر.. فعلا، إننا لانفكر في إطار لسان فحسب، بل وبواسطة لسان أيضا» [18] ويتابع فيقول: «إن اللسان هو قالب العلوم الذي تتقولب الأفكار فيه وطبقا له».

إن استلهام تشومسكي أراء هامبولت لم يأت عرضا وإنما يعد استنجادا به في زمن كانت فيه المناهج التجريبية (Empiriste) مستفحلة ومهيمنة على الدراسات اللسانية. فكانت الأفكار آنذاك، في الخمسينات إلى نهاية

الستينات، مهما كانت جدارتها، تُرفض إن لم تصرح باعتمادها المنهج التجريبي البنوي مثلا بدعوى أنها غير علمية وذاتية لاتمت إلى الموضوعية ومن ثمة إلى العلم بصلة. هذا النوع من الدوغمائية البنوية كان مهيمنا حقا في بداية تكوين النحو التفريعي التحويلي في نهاية الخمسينات، يكفينا دليلا على ذلك أن ليونار بلومفيلد وتسيلغ س.هاريس قاما وقتها بثورة ضد المناهج الذهنية (Mentaliste) ومدحا كثيرا المناهج المستمدة من أعمال سكينر (Skinner) السلوكية في الوصف اللساني وابتعدا كل البعد عن كل ما من شأنه أن يذكر بالذهنية مثل الحدس والاستبطان والفرضيات حول ماهية العقل والفكر.. هذه المفاهيم الذهنية المذمومة والمنبوذة آنذاك كان تشومسكي قد وضعها في أساس نظريته بالشجاعة والاستدلال اللذين كان يتطلبهما الموقف المعرفي كما وصفناه.

كما كانت مواقف بلومفيلد وهاريس متطرفة في استبعاد المناهج الذهنبية، فإن مواقف تشومسكي لم تكن لينة إزاء المناهج التجريبية وبالخصوص إزاء المنهج البنوي الأمريكي. كلما أراد تشومسكي أن يقترح نظرة جديدة وأفكارا لم تكن مألوفة اعتمد، قبل الشروع في تقديمها، على نقد مقابلها في المناهج البنوية وهكذا نراه قد خصص فصلا كاملا في أول كتبه "البنى التركيبية *Syntactic Structures*, Mouton 13th, printing, 1978" الذي صدر لأول مرة في سنة 1957 لدحض أكثر أوجه الوصف البنوي قوة وهو منوال **التركيب الأساسي** (Phrase structure description) الذي طوره أستاذه هاريس. هكذا انتقد ثنائية سوسور "**لسان/كلام** (Langue/parole) رغم اقترابها من ثنائيته "**ملكة لغوية/ تأدية**" (Compétence/performance) وأعاب فيها عدم ديناميتها، كما أقام انتقادا مضطردا ضد مفهوم "**المدونة**" (Corpus) و"**نظام الأدلة**".. أي أنه انتقد الأسس المعرفية التي يقوم عليها المنهج التجريبي البنوي.

تشومسكي محق في الكثير من انتقاداته الموجهة إلى البنوية التي أدارت ظهرها لكليات اللغة ورفضت بكل ما أوتيت من قوة الاعتماد على غير المدونة أو حتى الخروج عنها قليلا لاستكمالها مثلا في حالات الضرورة التي يحس بها الواصف العلمي. كذلك كانت البنوية تندد بمفهوم الحس اللغوي (Sentiment linguistique) الذي قد يراود الباحث في عملية أداء مهمته الوصفية التي تصور على أنها شبه آلية لايتدخل فيها الواصف بمعرفته الخاصة للغة التي هو بصدد وصفها.

أما تشومسكي فيرى أن استطاعتنا التمييز بين الكلام **السليم نحويا** وغير السليم (Grammatical/agrammatical) لدليل على استبطاننا (intérioriser) لنظام من القواعد يسمح لنا بأن نصف اللسان بهذا الشكل. كما أن هذا النظام من القواعد يشكل معرفتنا اللغوية (savoir linguistique)، وبالتالي ملكتنا (Compétence)، ولايمكن أن يضمن في المدونة مهما كانت سعتها.

إن الفرضية القائلة بأن اللسان يستخدم وسائل محدودة بطريقة غير محدودة تؤكد وجود هذا النظام من القواعد التي قد تكون **تكرارية** (récursive). المتكلم يحدث أقوالا (Énoncés) جديدة تماما لم تُلفظ من قبل دون أن يعيق ذلك قدرته على فهمها، هو ومخاطبه، وهذا ما يسمى **بالإبداعية** (Créativite)، ودراسة هذا النظام من القواعد الذي له مقر في الدماغ، أفيد من دراسة الكلام الذي أحدث وفقه وبواسطته. اللسانيات يجب أن تخلو لدراسة الذهن البشري إنطلاقا من الآثار التي يتركها في الكلام وهنا يقول تشومسكي: إن المشكل المطروح على اللساني، وعلى الطفل المتعلم للغة، على حد سواء، هو أن يتمكن من تحديد، من خلال معطيات التأدية، النظام الباطني من القواعد الذي أصبح المتكلم يتحكم فيه ويستخدمه أثناء التأدية الحقيقية، من ثمة، وبالمعنى التقني، فإن النظرية اللسانية هي نظرية ذهنية، من حيث إنها تهتم بإيجاد حقيقة ذهنية تقوم عليها السلوكات اللغوية الحقيقية. إن المشاهدة

العلمية لاستعمال اللغة والاستعدادات الفرضية للاستجابة للكلام، والعادات وغيرها، بإمكانها أن تقدم لنا أدلة خاصة بطبيعة هذه الحقيقة الذهنية، لكنها حتما لن ترقى لتكون هي الموضوع الأساسي للسانيات، إن أردنا من اللسانيات أن تصبح علما جديا" 19.

الهوامش والإحالات

(1) – الموسوعة الفلسفية، إشراف، بودين. وم. روزنطال، دار الطليعة بيروت، ترجمة سمير كرم. الطبعة الثالثة، 1981

(2) – جورج مونان، *Histoire de la linguistique des origines au 20éme siécle*, PUF, 1967, p 186

(3) – نفسه ص 186

(4) – الوسوعة الفلسفية، نفسه

(5) – أندري يعقوب، Genèse de *la pensee linguistique*, Armand Colin

(6) – ج. مونان نفسه، ص 187

(7) – أندري يعقوب، نفسه ص 89

(8) – ج. مونان، نفسه ص 190

(9) – آدم صاف، Adam Scaff, *Language et connaissance*, Ed. Anthropos, 1969, p 18

(10)- نفسه، ص 19–18

(11) – نفسه، ص 23

(12) – كلود حجاج، C.Hagège, *la grammaire générative, Réflexions critiques*

(13) – أندري يعقوب، نفسه ص 90

(14) – أندري يعقوب، نفسه ص 92

(15) – ج. مونان نفسه ص 189.

(16) – أندري يعقوب نفسه، ص 92-93، ومن آراء هامبولت على غرار شليكل و.ف. بوب أن اللغة كانت كاملة في بداية أمرها، أي لما اختلقها الذهن البشري البدائي، ثم تزيفت مع الزمن. هكذا تكون أقدم اللغات أكملها.

(17) – ج. مونان، نفسه ص 190

(18) – آدم صاف، نفسه ص 18

(19) – نعوم ابراهيم تشومسكي، *Aspects of the theory of syntax*, MIT press, 13th printing, 1982, p4